دراسة عرضية لمخطوط "الجامع" للشيخ خليل بن إسحاق

د. مختار حمحامي*

إن الشيخ ضياء الدّين أبو المودّة خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب الجندي المالكي(ت: 769هـ) – رحمه الله تعالى – نار على علم، وأشهر من أن يُعرف به في ديارٍ هيمن على تعليمها **مختصرُه الفقهي** قرونا مديدة، حفظه المتفقهة في طلائع الطّلب، ونشر ألفاظَه منطوقا ومفهوما مَن تصدّر للفتوى من الفقهاء، كما شاع بين المتفقّهة أيضا أنّ أصل "مختصر خليل" هو "التّوضيح" شرح جامع الأمهات لابن الحاجب(ت: 646هـ) المعروف بمختصر ابن الحاجب الفرعي، كما عرفه أهل التراجم بـ "مناسك الحج"، و"مناقب شيخه عبد الله المنوفي"، و"شرح المدونة" ولم يكمل وصل فيه إلى أواخر الزكاة، و"شرح ألفية ابن مالك". وممّا لم أجد له ذكرا عند مَن ترجم له[1] كتاب "الجامع"، ولهذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر[2]– فقه الإمام مالك – تحت رقم: 308740، وقد نُشرت في شبكة الإنترنت.

دلالات نسبة كتاب "الجامع" للشيخ خليل:

يدلّ على صحّة نسبة هذا الكتاب للشيخ خليل عدّة أمارات:

1 – وجود نسبته في بداية المخطوط وفي نهايته، فقد جاء في البداية: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، صلي الله على سيدنا ومولانا محمّد وآله. كتاب "الجامع" لأبي المودّة الشيخ خليل بن إسحاق المالكي المصري – رضي الله عنه ونفعنا به آمين". أمّا ما جاء في نهاية المخطوط: "انتهى كتاب "الجامع" لأبي المودّة الشيخ خليل بن إسحاق المالكي المصري – رحمه تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركته آمين".

2 – وجود مخطوط في المملكة المغربية[3] تحت عنوان: " **تقريط المسامع بشرح كتاب الجامع**"، تأليف الشيخ أبو عبد الله محمّد التاودي بن محمّد الطالب بن سودة المري. وهذا الكتاب شرحٌ على كتاب الجامع لأبي المودة خليل بن إسحاق، صاحب المختصر في الفقه المالكي كما ذكر صاحب "فهرس ما لم يفهرس من المخطوطات المغربية في الخزانات الخاصة" للسيد أحمد بن عبد الكريم نجيب.

3 – شرحُ التّاودي لجامع خليل هذا، وقد ذكره أيضا محمّد بن محمّد مخلوف صاحب شجرة النور الزكيّة، قال: "أبو عبد الله محمّد التاودي بن محمّد الطالب بن سودة المري الفاسي القرشي. .. له تآليف مفيدة منها. .. وشرح الجامع للشيخ خليل. .. توفي في ذي الحجّة سنة: 1209هـ عن سن عال".[4]

* – قسم العلوم الإسلامية، جامعة وهران.

4– لقد شرح الشيخ خليل كتاب "جامع الأمهات" كما تمّت الإشارة إليه، وقد سمّاه "التّوضيح"، والظّنُ يميلُ إلى أنّ هذا "الجامع" هو الجزء الذي شرح فيه خليل "كتاب الجامع للمعاني المفردة عن الشريعة" وهو آخر كتاب يختم به ابن الحاجب "جامع الأمهات"، وهذا الظنّ يشفع له وجود فقرات "جامع الأمهات" بتمامها في "الجامع" لخليل.

دراسة وصفية لمخطوط "الجامع":

كتاب "الجامع" مخطوط[5] جَمَعَته عشرُ لوحات، كلّ لوحة بها صفحتان متقابلتان إلاّ اللّوحة العاشرة بها صفحة واحدة، خطّها مغربي مشكول وواضح إلاّ ناذرا، بها أخطاء قليلة صُحح بعضها في الهامش، ولقد احتوى كتاب " الجامع " على موضوعات متنوعة وعامّة، انسبكت في صورة النّصيحة أساسا، ممّا أضفى على الكتاب في العموم طابع السلوك والتزكيّة، ولكنّه لا يخلو من التّوجيه الفقهي للمسائل المتناولة، لتظهر مصطلحات الأحكام الشّرعية: "يجب" و " يستحب " و " يكره " و " يحرم " و " يباح " و " يلزم " و يجزئ " و " أُرْخِص ".

أمّا مِن حيث تقسيم الكتاب فلا يظهر له خطّة واضحة، ابتدأه الشيخ خليل – رحمه الله تعالى – بأسلوب النّصائح والتّوجيه السلوكي دون ذكر عنوان، فهو أشبه بالرّسالة من الكتاب، يقول في فاتحته: "اعلم – أسعدنا الله وإيّاك بطاعته – بأنّ العبادةَ ثمرةُ العلم، وفائدةَ العمر العملُ، ومقصود ذوي الهمّة شعارُ الكرام. .."، ويمضي الكلام سردا للتوجيهات إلى أن يصل اللّوحة الرّابعة الصّفحة الثامنة فيعقد عنوانا يقول فيه: " بابٌ: والسّفرُ عل قسمين طلبٌ وهربٌ. .."، ثمّ يعقب هذا الباب أربعة فصول: وهي كالآتي:

"فصل: وخصال الفطرة عشرة..."

"فصل: وللمسلم على المسلم حقوق..."

"فصل: ولا تجوز معاملة مَن كان غالب ماله الحرام..."

"فصل: وينبغي للمؤمن أن يُرى ساعيا في تحصيل حسنات لميعاده أو درهم لمعاشه. .."

أسلوب الكتاب أسلوب أدبي حسن سلس، تعلوه مسحة خفيفة من الصنعة الأدبية من غير تكلّف، فيه فقرات مختارةٌ ألفاظُها تتجاوب مع عاطفة السّلوك وكأنّها نَشَزَت عن أسلوب التّكليف الملزم والزجر المفزع، وهذه نماذج منها: " اعلم – أسعدنا الله وإيّاك بطاعته – بأنّ العبادةَ ثمرةُ العلم، وفائدة العمر العملُ، ومقصود ذوي الهمّة شعارُ الكرام وسبيل السّعادة ومنهاج الجنّة، لكنّها طريق وَعْر، وسبيل صعبٌ، طويل العقبات، شديد المشقّات، كثير العوائق والعلائق، خفي المهالك والمسالك، كثير الأعداء والقطّاع، عزيز الأشياع والأتباع،. .."[6]، ويقول: "واقمع هواك فإنّه كالنّمر إذا حارب لم ينصرف إلاّ بقمع بالغ وقهر شديد، واحترس من كيد الشيطان

فإنّه كالذئب إن طردته من جانب دخل من جانب، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك، يرحم الله امرأ قال فغنم أو سكت فسلم. .."[7].

وفيما يخص موضوعات "الجامع" فإنّها متنوعة تبتدئ بمقدمة عن ارتباط العلم بالعمل، ثمّ تناول ما يجب على المسلم أن يعتقده في الله تعالى في صفاته وأسمائه مستندا إلى النظر وإلى الاستدلال، ثم ما يتبع ذلك من النبوة والرسالة، والحشر والنشر، وسؤال القبر وعذابه، والميزان. .. ثمّ تناول التوبة وشروطها، ثمّ ذكر فضل الصحابة – رضي الله عنهم – وبيان مراتبهم على حسب السبق. ثمّ تناول ما يخص تزكية النفوس وتطهير القلوب وصيانة الجوارح من القلب واللسان والبصر والبطن، ومن ذلك انتقل للكلام عن حكم ملاهي الغناء وآلاته والإدمان على لعب الشطرنج والنرد وممّا يُلهي عن العبادة، ثمّ ما يكون خارما للمروءة، ثمّ تكلّم عن حكم تصاوير ذوات الروح، ثمّ انتقل لأحكام معاملة الحيوان من وسمه وإخصائه، وحكم قتل الحيّات والنمل والنحل والهدهد والصرد، ثمّ انتقل للكلام عن آداب الأكل والشرب، والتنزه عن الروائح الكريهة المؤذية، ثمّ أحكام اللباس والزينة، وأحكام دخول الحمّام، ثمّ آداب الجلوس وآداب النّوم وأحكام الرؤى، ثمّ عقد بابا في أحكام السفر وأقسامه، ثمّ ذكر أحكام خصال الفطرة، ثمّ ذكر حقوق المسلم على المسلم الدعاء له وزيارته، وأحكام التداوي وأحكام الرقية، والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحكام الهجر، وحسن المعاملة، ثمّ نبّه إلى عواقب الأمور فلا يُدخَل فيها إلا بعد التأكد منها، ثمّ تكلّم على أحكام أموال الحرام والمشتبهة، وأحكام الورع وطلب المأكل الحلال، ثمّ تكلّم عن أحكام الطيرة والكهانة، وعدم ترك العمل في يوم من أيام الأسبوع، وختم الكتاب بذكر ما يليق بالعلماء من الصفات الحسنة وما يجب عليهم في الاجتهاد والتأويل ولزوم السنن، ثمّ ختم بصفات أدب طلب العلم وما يجب عليه من الأخلاق الحسنة في التعامل مع العلماء.

منهج الخليل في التّعامل مع النصوص والاجتهاد من خلال "الجامع": لقد صرّح الشيخ خليل بمنهجه الفقهي في خاتمة كتاب " الجامع " فقال: "ويلزم التّسليم للسنن، ولا تُعارض بقياس ولا برأي، ولا يأخذ إمام بحديثين مختلفين، وما تأوّل به السّلف الصّالح به تأوّلناه وما تركه تركناه، ولا يخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه، وقال عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – سنن النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعته وقوّة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا النّظر فيما خالفه، مَن اهتدى به هدي ومَن استنصر بها نُصر ومَن تركها واتّبع سبيل غير المؤمنين أصلاه جهنّم وساءت مصيرا. وقال ابن عيينة: الحديث مَضِلّة إلاّ للفقهاء دون غيرهم، لكونهم يحملون الشيء على ظاهره وله تأويل من حديث غيره أو دليل يخفى عليهم أو متروك وجب تركه عن شيء ممّا لا يعرفه إلاّ الفقهاء"[8].

وبناء على هذا النّص يكون منهجه الفقهي – في خطوطه الرئيسية – متمثلا فيما يأتي:

1. الأخذ بظاهر الأحاديث إذا لم يكن لها معارض قوي من حديث أو دليل معتبر.

2. في حالة تعارض الحديث مع القياس يُقدّم الحديث.
3. في حالة تعارض الحديثين يُتأوّل لهما ولا يُعملان معا.
4. فهم السّلف حجّة، فما تأوّلوه عُمل فيه التأويل، وما لم يتأوّلوه تُرك فيه التأّويل، ويكون تركهم التأويل حجّة على مَن بعدهم فلا يُقتحم فيه بتأويل ما.
5. الإجماع حجّة.
6. إذا اختلف السّلف على أكثر من رأي لا يجوز إحداث رأي جديد لم يقولوا به، ويُختار من بين آرائهم.

ومع اعتناء الخليل بالسنن في وصيّته للفقهاء إلاّ أنّه لم يعتن بذكر ألفاظها في "الجامع"، غير أنّ آثارها واضحة في معاني الأحكام المبثوثة، فالسياق ينبئ على **منهج فقهي ملتزم بالنّصوص**، وقد جاءت بعض الأحكام معبّر عنها بلفظ الحديث أو قريب منه كقوله: "وأنّ خير القرون القرنُ الذين رأوا رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – وآمنوا، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم"[9]، ومنها الأدعية المأثورة مثل: "اللهمّ إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به الصّالحين من عبادك المتّقين"[10]، وقد صرّح بقول رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – في معرض بيان فضل العلم بقوله: "وقال النّبي – عليه السّلام –: تعلّموا العلم، فإنّ في تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث فيه جهاد، والفكرة فيه تعدل الصيّام، ومدارسته تعدل القيام، وتعليمه صدقة، وبذله لأهلة قربة لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنازل سبيل أهل الجنّة، والإيناس في الوحشة، والصّاحب في الغربة، والمحدث في الخُلوة، والدّليل على السرّاء والضّراء، والسّلام على الأعداء والوزير عند الأخلاء، والقرب عند البعداء، يرفع الله به أقواما، يجعلهم في الخير قادة، وهداة يُقتدى بهم في الخير، يقتدى بآثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وبنتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في جلستهم حتى يفترشون لهم أجنحتهم، يستغفر لهم كلّ رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع الطّير وأنعامه والسّماء ونجومه، لأنّ العلم حياة القلوب من العمى، ونور البصر، وقوّة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار ودرجات العلى في الدنيا وفي دار القرار، وبه يُطاع الله، وبه يُحمد، وبه يُعبد، وبه يُوحّد، به تُوصل الأرحام، فالعلم إمام والعمل متابعه، يلهمه الله السعداء، ويحرمه الأشقياء، ومن أدركه فأيّ شيء فاته، ومن فاته فأيّ شيء أدركه، ولَبَابٌ من العلم تتعلّمه خير لك من عبادة سنين ذوات عدد إذا قارنه العمل، لأنّ مَن طلب العلم ليُماري به أو ليفتخر به على السّفهاء أو ليكتسب به حظّا من الدنيا كان عليه حجّة وحسرة وندامة يوم القيامة إذ لغيره نور ووزر عليه"[11].

وفي الختام أقول أنّ العمل لتحقيق هذا المخطوط متواصل – بفضل الله تعالى – ليخرج إلى عالم المطبوعات يستفيد منه طلبة العلم عامّة والمهتمين بالفقه المالكي خاصة، على أن تردّ المسائل إلى أصولها لتظهر مسالك الاستدلال واضحة لشبابنا المتلهف لتباع السّنن وسيرة السّلف الصّالح.

الهوامش:

1. ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة 2: 86. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 11: 92. السيوطي، حسن المحاضرة 1: 262. ابن فرحون، الديباج 115، 116. ابن مريم، البستان 96 – 100. التنبكتي، نيل الابتهاج 112 – 115. حاجي خليفة، كشف الظنون 1628، 1831، 1842، 1855. الزركلي، الأعلام 2: 315. كحالة، معجم المؤلفين 4: 114. Brockelmann: g ، II: 38 - 58 ، s ، II 99 –96 ".

2. ينظر: الفهرس الشامل لمخطوطات الأزهر، ص: 84.

3. فهرس ما لم يفهرس من المخطوطات المغربية في الخزانات الخاصة، أحمد بن عبد الكريم نجيب، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، كتب مقدمته في 21 من ربيع الأول 1427 هـ الموافق 19 نيسان 2006م، ص: 350.

4. شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، محمّد بن محمّد مخلوف، مط: دار الكتاب العربي، ج: 1، ص: 372، رقم الترجمة: 1486. وينظر أيضا: الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمّد بن الحسن الحجوي، تحق: عبد العزيز القارئ، مط: المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، سنة: 1397هـ، ج: 2، ص: 294.

5. مخطوط بالأزهر الشريف منشور في الإنترنت كما أشرت سابقا.

6. اللّوحة: 1، ص: 1.

7. اللّوحة: 7، ص: 2.

8. اللّوحة: 9، ص: 2 واللّوحة: 10، ص: 1.

9. اللّوحة: 2، ص: 1. والحديث عند مسلم [كتاب فضائل الصّحابة، بَاب فَضْلِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهمْ – ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، رقم: 2534] غيره قريب من هذا اللفظ، "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا – قَالَ: ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا".

10. اللّوحة: 2، ص: 2. والحديث عند البخاري وغيره [كتاب الدعوات، بعد بَاب التَّعَوُّذِ وَالْقِرَاءَةِ عِنْدَ الْمَنَامِ، رقم: 6320] "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ".

11. اللّوحة: 9، ص: 1 و 2. والحديث أخرجه أبو عُمَرَ بْنُ عبدِ البَرِّ في جامع بيان العلم وفضله ج: 1، ص: 66، رقم: 239) بسنده، عن معاذِ بنِ جَبلٍ، قال: قَالَ رسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –: " تَعَلَّمُوا العِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، والبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لاَ يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لأَنَّهُ مَعَالِمُ الحَلاَلِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سُبُلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وهو الأنيسُ فِي الوَحْشَةِ، والصَّاحِبُ فِي الغُرْبَةِ، وَالمحدِّثُ فِي الخَلْوَةِ، والدَّليلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلاَحُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلاَّءِ، وَيَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، ويقتدى بِفِعَالِهِم، وينتهى إلى رَأْيِهِمْ، وَتَرْغَبُ المِلاَئِكَةُ فِي خُلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَحِيتَانُ البَحْرِ وهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ البَرِّ وأَنْعَامُهُ؛ لأنَّ العِلْمَ حَيَاةُ القُلُوبِ مِنَ الجَهْلِ، وَمَصَابِيحُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يَبْلُغُ العَبْدُ بَالعِلْمِ مَنَازِلَ الأَخْيَارَ، وَالدَّرَجَاتِ العلى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الفِكْرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ القِيَامَ، بِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وَبِهِ يُعْرَفُ الحَلاَلُ مِنَ الحَرَامِ، هُوَ إِمَامُ العَمَلِ، وَالعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ" قال أبو عمر: هكذا حدَّثنيه عُبَيْدُ بْنُ محمَّدٍ مرفوعاً بالإسناد الَّذِي روَيْناه به عنه، وهو حديثٌ حسنٌ جِدًّا، ولكن ليس له إسناد قويٌّ، وَرَوَيْنَاهُ من طرقٍ شتى موقوفًا على معاذ". وقال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء (ج: 1، ص: 20): "أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب وابن عبد البر وقال: ليس له إسناد قوي". وقال ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (ج: 10، ص: 193): "وهذا الكلام معروف عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – رووه عنه بالأسانيد المعروفة وهو كلام حسن ولكن روايته مرفوعا فيه نظر".